فى الأدب الأجنبى

صفحات مطوية من الأدب الرومانى ، بقلم الفيلسوف سنكا « Seneca »

من نعم الله علينا العفة والاعتدال (١)

ترجمة محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف ، وعضو المكتب الفنى

تمهيد :

عاش سنكا من سنة ٣ قبل الميلاد إلى سنة ٦٥ ميلادية ، فهو من هذه الناحية مخضرم فى الزمن ؛ وهو أسبانى المولد ، رومانى المربى ، فهو من هذه الناحية مخضرم فى الجنسية (إذا صح هذا التعبير) . وقد أظهر ذكاء خارقا منذ صغره وتربى على أيدى طائفة من أمهر الأساتذة ورحل إلى بلاد اليونان ومصر ، واشتغل بالقانون ثم عهد إليه بتربية العاهل العاتية نيرون . ولقد أظهر سنكا من الضعف فى تربية هذا الطاغية الناشىء ما كان له أسوأ الأثر فى حياة كل من التلميذ والأستاذ ، بل فى حياة الدولة الرومانية نفسها . ولقد اتخذه نيرون وزيرا مستشارا له ، بعد جلوسه على عرش رومة ، فكان له أطوع من بنانه ، فى تحرير الفتاوى التى يزكى بها أعماله الشاذة من قتل وسفك وغدر . حتى إنه حينما اغتال نيرون أمه كتب له سنكا خطابا إلى مجلس الشيوخ ينكر فيه الجريمة ويزكيها فى آن واحد . على أن طاغية الرومان قلب لمستشاره ظهر المجن ، فنحاه عن منصبه أولا ، ثم بعث إليه بمن قتله أبشع قتلة .

من نعم الله علينا العفة والاعتدال

ليس ثمة أى شىء مما هو ضرورى لنا إلا ونحن نستطيع الحصول عليه بثمن رخيص أو بلا ثمن مطلقاً ؛ وهذا تدبيرلنا من الله تعالى ، الذى لم يضق إحسانه عن مطالبنا . ولا شك فى أن المعى تشتهى ، وتدعونا لإشباعها ؛ ولكن قليل

---

(١) عن الانجليزية ص ٨١ — ١٠٠ من كتاب :

The Morals of Seneca : A Selection of His Prose. Edited by Waletr Clode.

الطعام يرضيها . فبلغة من الخبز وجرعة من الماء فيهما الكفاء ، وما زاد على ذلك فهو زائد على الحاجة (١) . وإن من يعيش بحسب العقل لا يمكن أن يصير مسكيناً ، كما أن من يجعل للهوى السيطرة على حياته لا يمكن أن يصير غنياً ؛ لأن الطبيعة محدودة ، بخلاف الخيال فانه لا حد له . أما الطعام والثياب والمأوى فقليل يطعم الجسم وقليل يكسوه : بحيث إذا تابع الانسان الطبيعة البشرية ، من غير تطلع إلى الكماليات ألفى أنه فى غنى عن الطاهى ، غناه عن الجندى ، فانا نستطيع الحصول على الضروريات بثمن قليل ، على حين نحمل أنفسنا أشق المتاعب فى سبيل الحصول على الكماليات . وان العناية الربانية لأرحم بنا من أن تتركنا نعيش بذكائنا ، وأن نكون فى حاجه إلى الفنون والاختراعات . وليس يوقعنا فى المشكلات إلا الفخر وحب الفضول . فاذا لم يقنع المرء بغير الحلل الثمينة ، والرياش الفاخر ، والتماثيل والتحف الفضية والذهبية ، والجمع الحاشد من الخدم والحشم ، ونادر التحف من جميع الأقطار — فليس الخطأ خطأ المقادير ، بل خطؤه هو ، فى أنه لن ينال رغباته لأن شهواته مسحوتة (٢) ؛ وما ذلك تعطش ولكنه مرض . ولو أنه كان سيد العالم بأسره ما زاد على أن يكون شحاذا . وإن هو إلا العقل الذى يمنحنا الغنى والسعادة ، بقطع النظر عن الحالة التى نكون فيها ، وليس للأموال فى نظره من القيمة أكثر مما لها فى نظر الآلهة . وإذا كان الدين خالصاً لله لم تكن ثمة حاجة إلى بدائع الزينة . وليس يصور لنا الفقر بغيضاً بشعاً إلا الترف والشره ، فان أعمالنا لا تحتاج إلا إلى اليسير ، وإذا نحن أعددنا ما ندفع به عن أنفسنا البرد والجوع والعطش ، فان كل ما عدا ذلك ليس إلا زهواً وإسرافا وما بنا من حاجة إلى الانفاق على شهى الألوان الأجنبية أو مبتكر الصحاف الأنيقة . أهو أسوأ حالا فى فقره ذلك الذى يحتقر هذه الأشياء ؟ أم هو أسعد حالا لأنه لا يستطيع ثمنها ؟ فانه يبقى سليما معافى أراد أم لم يرد ، وإن ما يعجز الانسان عن عمله يبدو فى كثير من الأحيان كما لو كان غير راغب فى عمله .

(١) تدبر الحديث : « ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » .

(٢) مسحوتة : نهمة لا تشبع ، وهى كلمة دقيقة فى ترجمة كلمة « Insatiable »

اعتزال العصور السابقة

إنى إذ أتصور العصور السابقة ، يعقد الخجل لسانى كما لو كان الفقر فى حاجة إلى مواساة ، فأننا قد بلغنا الآن من إسرافنا فى شهواتنا درجة أصبح فيها التراث العظيم أقل من أن يفى بوجبة ، فلم يكن لدى هوميروس إلا خادم واحد ، وكان لأفلاطون ثلاثة خدام ، ولم يكن لزينون (زعيم المذهب الرواقى العظيم) خادم مطلقا ، ولقد كانت بنات سيبيو يتقاضين أنصباءهن من الخزانة العامة ، لأن أباهن لم يخلف لهن ما يساوى درهما (١) . وما كان أسعد أزواجهن ، فقد كان حموهن أهل رومة . وهل فى استطاعة إنسان أن يحتقر الفقر بعد هذه الأمثلة السامية ؟ وهى أمثلة تكفى لا للرضا بالفقر فحسب ، بل لامتداحه وإطرائه ، ولما هرب من ديوجين خادمه الوحيد ، سئل عن مكانه وحاول أصحابه أن يغروه بالبحث عنه وإعادته إلى خدمته ؛ فقال لهم : « واعجباه أيستطيع مانس أن يعيش من غير ديوجين ، ولا يستطيع ديوجين أن يعيش من غير مانس ؟ » وبذلك لم يسترجعه . إن تقوى سيبيو وعفته قد جعلت ذكراه أكبر جلالا مما جعلتها سيوفه ودروعه . بل لقد كانت منزلته بعد أن رحل عن بلاده أعظم مما كانت يوم كان يذود عن حياضها ؛ فانه حدث أنه لم يكن مفر من أن تكون رومة جانية على سيبيو أو أن يكون سيبيو جانيا على رومة .

إن الرجل العفيف ليجد فى الخبز القفار والماء القراح ما يغنيه عن وليمة . وإن حشائش الحقول لتمنح الانسان من الغذاء ما تمنح الوحوش . إن أسلافنا لم يعلنوا مجدهم بشهى الأطعمة وعبق العطور ؛ ولكن بالأعمال الفاضلة ، وبالعرق المتصبب من المجهودات العظيمة الحربية ، المملوءة رجولة .

حالة البراءة أو الطهارة

إذا كانت الطبيعة ملكا شائعا لجميع الناس ، وخيراتها فى متناول أيديهم للاستمتاع بها استمتاع هرجلة وهرجة ، فأية حالة أهنأ من أن يعيش الجنس

(١) شبيه بهذا مسألة أولاد عمر بن عبد العزيز .

البشرى من غير حقد ولا حسد ؟ وأى غنى أحسن من ألا يكون فى الدنيا رجل فقير ؟ وما إن تحكم الطمع فى منح المقادير المتساوية ، وشرع الأفراد يغتصبون لأنفسهم ما كان مقدرا أن يكون للجميع ، حتى دلفت الفاقة إلى الدنيا عند ما طمع بعض الناس فى أن يكون لهم أكثر مما يستحقون ، فحرموا سائر الناس من أنصبائهم — وهى خسارة لا يمكن أن تعوض ، إذ مهما أمكن أن تنال أكثر مما فى أيدينا ، فقد كان لنا كل شىء . لقد كانت ثمار الأرض فى تلك الأيام موزعة على سكانها من غير عوز ولا إسراف . وما دام كل إنسان كان قانعا بنصيبه ، لم تكن تعرف الدنيا اعتداء ، ولا طغيانا . ولا إخفاء لهذه الخيرات العامة لأغراض شخصية ؛ بل كان كل فرد معنيا بجاره عنايته بنفسه ، ولم يكن هناك سلاح ، ولا سفك دماء ؛ ولا حروب إلا مع الحيوان : فثمة فى ظلال الغاب ، أو حماية الكهوف ، أمضى الناس نهارهم من غير هم ، وليلهم من غير أنين . فطهارة نفوسهم كانت درعا لهم وأمانا . هنالك لم تكن السرر المرفوعة ، ولا اللآلىء الخاطفة للأبصار ، ولا التطريز والوشى ، ولا ما يتبع كل ذلك من آلام وتأنيب نفسى ؛ فقد كانت السماء عرشهم وظلتهم ، وكان لهم فى بهائها وجمالها متعة لأنظارهم ، ففى حركة الأفلاك ، ومدارات النجوم ، وفى نظام المقادير البديع كان تأملهم وتفكرهم . ولم يكن لديهم آنئذ مدن ، بل فضاء فسيح ذو هواء طلق ، ونافورات بلورية ، وظل ظليل ، ومروج كساها جمالها الفطرى ، وبيوت منحتهم إياها الطبيعة ، فعاشوا فيها عيشة راضية ، لا يفزعهم شبح الحرمان ، ولا يقلقهم توقع الأذى . لقد عاش أولئك الناس من غير بلبال ولا خداع ؛ ولم يكونوا قد مزقوا باطن الأرض بعد للبحث عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وما كان أبعدهم عن قتل النفس الذى نقترفه نحن لنتلهى بمنظره ، بعداً لم يوقعهم فيه باعث الخوف أو الغضب . ولقد أحسنت إلينا الفطرة بأن جعلت فى متناول أيدينا كل الأشياء التى قد تعود علينا بالخير ، ولم تخف عنا إلا تلك الأشياء قد يكون فيها أذانا — كما لو كانت تخشى أن تخلى بيننا وبين الذهب والفضة ، أو الحديد الذى هو أداة الحروب والصراع للحصول على ما فى أيدى غيرنا . فنحن أنفسنا الذين قد استخرجنا لأنفسنا من باطن الأرض

كلا من أسباب الخطر وأدواته . ثم قد بلغ بنا الغرور أن جعلنا أعلى قيمة لتلك الأشياء التى خصتها الطبيعة بأحط مكان . وماذا يمكن أن يكون أبشع وأخشن من هذه المعادن النفيسة فى مناجمها ؟ وأية ذلة وقذارة أعظم مما يتمثل فى أولئك الرجال الذين يستخرجون تلك المعادن من المناجم ؟ على أن هذه المعادن تدنس عقولنا أكثر مما تدنس أجسامنا . فهى تجعل مالكها شرا من مُعَدِّنها .

وقصارى القول أن الأثرياء أكثر رقا من الأرقاء ، كلاهما لا يقنع بالقليل(١) .

الحياة العفيفة هى الحياة السعيدة :

ما أسعد الرجل الذى لا يأكل إلا ليشبع الجوع ، ولا يشرب إلا ليطفىء الظمأ ، ويعيش وراء عقله لا وراء تقاليده ، ويتزود لما هو نافع وضرورى ، لا للتباهى والتفاخر . لنضع الشكائم على شهواتنا ولنشجع الفضائل . . . ليكن فراشى ساذجا ونظيفا . ولتكن كذلك ملابسى ، وليكن طعامى من غير نفقات كثيرة أو خدم كثير ، ولا يكونن عبئا على جيبى أو بدنى . وإن مايستقله الترف لأكثر مما يكفى الطبيعة ، وإن غاية الطعام والشراب هى ما يشبع الجوع ويروى العطش . وماذا يحدث لو أن شخصا أكل وشرب أكثر من آخر . ما دامت النتيجة أن كلا منهما ليس غرثان ولا ظمآن ؟ (٢) وإن أبيقور الذى يحد اللذة بحدود الطبيعة ، كما يحد الرواقيون الفضيلة ، لعلى حق مبين ، وإن أولئك الذين يستشهدون بأقواله ليؤيدوا بها شهواتهم ليسيئون فهمه كل الإساءة ، وهم بذلك يبحثون عن حجة طيبة لغرض شرير ، فليس ثمة من صلة بين لذاتهم فى الكسل ، والنهم ، والفجور ، وبين مبادئه وتعاليمه .

والحق أن فلسفته تبدو للنظرة الأولى فلسفة مخنثة ، ولكن من ينظر إليه نظرة تمحيص يلفيه رجلا شجاعا . وإن ارتدى حلة نسوية .

(١) تأمل الحديث « اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال »

(٢) تدبر قول عمر رضى الله عنه : « كفى سرفا ألا يشتهى الرجل شيئا إلا أكله » .

لبعض الفلاسفة على مقتضى تعاليمهم

وإنى أعلم أن هناك نقدا شائعا بأن هؤلاء الفلاسفة لا يحيون الحياة التى يدعون إليها فى تعاليمهم ، فإنهم يستطيعون أن يتملقوا سادتهم (١) ويجمعوا الضياع ، ويبلغ بهم الحزن على فقد ثرواتهم وأصدقائهم ما يبلغ بسائر الناس . إنهم يألمون كما يألم الناس من الزجر والتقريع ، إنهم كسائر الناس فى ترفهم فى طعامهم ، وشرابهم ، وأثاثهم ، ومنازلهم ؛ إنهم لا يختلفون عن الناس فى عنايتهم بالتحف الجميلة من الذهب والفضة ، وبالخدم والحشم . إن حدائقهم لا تختلف عن حدائق الناس فيما تحتوى من جمال وتنوع . ثم ماذا يترتب على كل هذا ؟ بل ماذا يترتب على أن يكون ذلك أضعافا مضاعفة ؟ إن من درجات الفضيلة أن يحتقر المرء نفسه ، وإذا لم يستطع أن يسمو إلى أعلى درجاتها ، فليكن أسمى من أحط درجات الرذيلة ، وإذا لم يستطع أن يخضع شهواته إخضاعا تاما فليعارضها وليقلل من شرورها .

وإذا لم أعش على السنن الذى أدعو إليه ، فلتلاحظ أننى فى إرشادى لا أصف نفسى وإنما أصف الفضيلة ؛ وإننى لا تحزننى رذائل الناس كما تحزننى رذائلى (٢) ولقد وجه هذا الاعتراض إلى أفلاطون ، وأبيقور ، وزينون . على أنه ليس ثمة فضيلة بلغ من تقديسها أنها نجت من الاستهتار . ولقد كان ديمتريوس الكلبى مثالا

---

(١) هنا وصف لحياة سنكا وكذلك ما بعده .

(٢) تدبر البيت المشهور

خذ بقولى ولا تنظر إلى عملى   ينفعك قولى ولا تضررك أعمالى

على أننا نجد ابن المقفع يخالف سنكا فى هذا الرأى - ولعلها المخالفة الوحيدة :

« ومن نصب نفسه للناس إماما فى الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والطعمة والرأى واللفظ والاخدان . فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه ؛ فانه كما أن كلام الحكمة يونق الأسماع كذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم » . الأدب الصغير (٢٣ - ٢٤)

قويا للصرامة والتقشف ، وقد فرض على نفسه ألا يملك شيئا ؛ ولكنه مع ذلك لم يسلم من تلك الثلمة(١) : وهى أنه احترف الفاقة بدلا من أن يحترف الفضيلة . ولقد عيب على أفلاطون أنه كان يطلب المال ، وعلى أرستطاليس أنه كان يتقبله ، وعلى ديمقريطس أنه كان يهمله ، وعلى أبيقور أنه كان ينفقه . وما كان أسعدنا لو أننا اقتصرنا على محاكاة رذائل هؤلاء الرجال ! فاننا لو بصرنا بحالنا لألفينا فى أنفسنا ما يغنينا عن غيرنا . ولكننا أشبه بقوم قد أخذهم الطرب فى مسرح أو حان ، على حين أن بيوتهم تندلع فيها ألسنة النيران ، ولكنهم لا يعلمون من أمرها شيئا ، وها هوذا « كاتو » نفسه ، اتهم بأنه كان سكيرا ، غير أننا لا نرى فى سكر كاتو تلك الجريمة التى كان يمكن أن تكون فى خيانته . إن أولئك الذين يهدمون المعابد ، ويحطمون المحاريب ، يدلون على نيتهم الشريرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا من الآلهة نيلا ؛ وكذلك الشأن فى أولئك الذين يستبيحون سمعة الفلاسفة العظماء . وإذا كان معلمو الفضيلة — كما تسميهم الدنيا — نهمين ، فساقا ، متكالبين ، فماذا يكون إذن أولئك الذين يشمئزون من اسم الفضيلة ؟

غير أن الطبائع الشريرة لا تحتاج إلى كبير ذكاء لانتقاص من هم أسمى منها أخلاقا . ومن عادة الجماهير أن تنبح عظماء الرجال كما تنبح الكلاب الصغيرة الضيف الغريب ، ذلك أنهم يرون فضائل غيرهم وسائل التقريع لهم على رذائلهم . ألا أن من الخير أن نمتدح الفضلاء ؛ فان لم نستطع فلندعهم وشأنهم ؛ ولندخر أنفاسنا (٢) ، فان ثورتنا ، إلى أنها كفر بالفضيلة ، لا تثمر إلا الإخفاق (٣) ولأعد إلى الموضوع الأصلى .

---

(١) تدبر المثل العربى : « وقد لا تعدم الحسناء ذاما » .

(٢) يقصد لنوقهم كلماتنا فى ذمهم .

(٣) ما أجمل قول نابغة بنى شيبان :

وما طلابك شيئاً لست نائله ، وسبك الناس ظلما ، غير تعذيب

من الخير أن تتعود الاعتدال فى أيام رخائك (١) .

إن من أيسر الأمور علينا أن نحدد الحدود لغيرنا ، ولكننا نستنكف أن نقيد أنفسنا أو نضبطها ، على الرغم من أننا نستطيع بشرور خفيفة أن نتحاشى شرورا أفظع منها أضعافا مضاعفة ؛ وإن العقل الذى لا يقنعه منطق الفكر بالأخذ بأسباب الفضيلة ، يقنعه فى كثير من الأحوال ، العوز بالاستمساك بها . فلنحاول أحيانا أن يكون غذاؤنا متقشفا (٢) ، وأن نخدم أنفسنا بأنفسنا ، وأن نعيش فى حدود مواردنا ، وأن نقص دثارنا على مقتضى مالدينا من النسيج وإن محاولتنا الاعتدال فى الحين بعد الحين تزودنا بأقوى برهان على حزمنا وفضلنا .

إن الشهوة الملجمة لجزء عظيم من الحرية ؛ ومن الرحمة بأنفسنا – مادام مستحيلا أن ينال امرؤ كل ما يتمناه – أن نحجم جميعا عن الرغبة فيما ليس فى أيدينا (٣) إن وظيفة العفة أن تسيطر على ملذاتنا : فهى تنبذ بعضها وتعدل بعضا آخر بجعله فى الحدود المعقولة ، فما أجمل الراحة بعد الإجهاد ، والطعام بعد المسغبة ! لقد تعلمت من رحلة واحدة أن كثيرا مما لدينا ليس إلا ترفا يستغنى عنه بأيسر مؤونة ، فاننا حين تحرمنا الظروف إياه لا نشعر حتى بحاجتنا إليه . (٤) هذا هو اليوم الثانى لرحلتى مع صديق ، ومركب واحد يقلنا نحن وخدمنا جميعا ، وحشيتى مفروشة على الأرض ، وعليها أنام ، وطعامنا يلائم فى تقشفه مأوانا ، ولم نحرم بيننا ولا كتب المائدة ، وسائق البغال من غير نعال ، وليس فى البغال ما يثبت أنها حية إلا أنها تمشى ، وأنا أشعر بأنى لست راضيا عن هذا العناء ،

(١) تدبر الحديث الشريف « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك » .

(٢) راجع الحديث : « اخشوشنوا فأن النعمة لاتدوم » .

(٣) تدبر المثل الانجليزى : إذا كنت لا تستطيع أن تنال ما تحب ، وجب عليك أن تحب ماتنال :

If you Cannot have what you like, yow must like what yow have.

(٤) تدبر قول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

ولكننى إذ أذكر أننا طالما كنا فى حالة أحسن من هذه ، يعلونى الخجل ؛ مما يدل على أنى لم أمعن بعد فى اعتياد تلك الأشياء التى أطريها وأمتدحها : ألا أننى لم أعتنق بعد الاعتدال ، فان من يخجل ان يُرى فى حالة متواضعة ، يطربه زهوا أن يرى فى حالة فاخرة . فأنا أنزل نفسى المنزلة التى ينزلنى رفقاء سفرى ، وأنا بذلك أبرأ ضمنا من آرائى وتعاليمى ، على حين إنه كان يجب على أن أرفع الصوت جهرا لبنى الانسان قائلا : انكم جميعا لفى جنون ، فقد ملك عليكم أفئدتكم الترف فغدوتم لا تقدرون رجلا لفضائله . وقد عدت إلى مأواى ذات ليلة ، وقد برح بى الاعياء ، فألقيت بنفسى على الفراش ، وفى صدرى هذه الفكرة : أنه لا شيء من الشرور يتقبل بقبول حسن ، فخبازى يخبرنى بأنه ليس عنده خبز ثم يقول : « على أنى أستطيع أن أحضر لك خبزا من مستأجريك ولكننى أخشى أنه لن يكون خبزاً شهيا » فأقول له : « لاضير ، فسأنتظر حتى يصبح شهيا ، ومعنى ذلك أننى سأنتظر حتى ترحب معدتى بما هو أسوأ منه . (١)

إن من الحزم أن نحاول فى بعض الأحيان الاعتدال ، وأن نعوّد أنفسنا القليل ؛ فان كثيرا من الصعاب ، صعاب الزمان ، وصعاب المكان ، قد تحملنا على الرضا بذلك القليل . إننا فى الشئون المالية (الميراث أو الوقف) نختبر قيم الرجال اختباراً دقيقا قبل أن نعهد إلى واحد منهم بدرهم . إننا نقول : إن لهذا الرجل ضيعة عظيمة ، ولكن الخبث أوقعها فى الارتباك ، إن له منزلا جميلا ، ولكنه بنقود مقترضة قد بنى ؛ إن له أسرة كبيرة ، ولكنه ليس على اتصال بدائنيه ، ولو أن ديونه قضيت لأصبح لا يساوى فلسا فلماذا لا نسلك مثل هذا النهج ، لنتعرف قيمة كل إنسان ؟ ألا إنه ليس يكفى أن يكون لك فيلق من الأتباع ، أو أملاك واسعة ، أو كنوز من المال والجواهر تنوء مفاتحها بالعصبة أولى القوة ، فان الرجل مع كل ذلك قد يكون فقيراً ؛ وسيكون الفرق بينه وبين الفقير ، على أحسن تقدير ، أن أحدهما يقترض من المربى ، والآخر يقترض من كنوزه ، وعلام تدل الزينة والتذهيب فى المركب ؟ وهل يمكن أن يجعل ذلك صاحبه أفضل مما هو ؟

مهدى علام

---

(١) تدبر المثل الألمانى « الجوع أمهر طاه » Hunger ist der beste Koch.